IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الاكاديمية العلمية
مجلة كلية الكوت الجامعة للعلوم الإنسانية
ISSN (E) : 2707 – 5648 II ISSN (P) : 2707 – 563X
www.kutcollegejournal1.alkutcollege.edu.iq
المجلد 2 , العدد 2 , كانون الأول 2021

الضوء والظل وأبعاد الشخصية الخارجية في روايات نجيب محفوظ

م. م. مروة ياس شمال [1] ، أ. د. ثائر العذاري [2]

ملخص البحث

يعمد الروائي إلى رسم شخصياته وتشكيلها من الخارج ويشتمل هذا الجانب المظهر العام للشخصية وشكلها الظاهري، ويذكر فيه الراوي ملابس الشخصية وملامحها وطولها، وعمرها ووسامتها، ودمامة شكلها، وقوتها الجسمانية، وهذا الجانب له أهميته الكبيرة؛ لأنه يساعد القارئ على التعرف على الجوانب الأخرى، فغالبا ما يكتشف المتلقي المكانة الاجتماعية للشخصية من خلال ملابسها، وكذلك فإن حركات رجل بدين، تختلف عن حركات رجل نحيف، وسلوك شخص ذميم المظهر تختلف ربما عن سلوك إنسان وسيم.. إلخ، فالروائي أراد أن يكوّن من رسمه الدقيق لشخوصه مسوغا لِيُهَيّئ المتلقي لاستقبال ما يصاحب هذه الشخصية من تجارب عاطفية أو غير ذلك وما يرتبط بها من تناقضات كثيرة.

الكلمات المفتاحية : الضوء والظل، الخارجية، الشخصية، أبعاد، الروايات

انتساب الباحثين
[1] كلية الكوت الجامعة، واسط، العراق، 52001
Nazikalmalaika089@gmail.com

[2] جامعة واسط، واسط، العراق، 52001
alethary@uowasit.edu.iq

[1] **المؤلف المراسل**

معلومات البحث
تأريخ النشر : كانون الأول 2021

Light and Shadow and External Character Dimensions in the Novels of Najib Mahfoodh

Marwa Yas Shimal [1] , Prof. Dr. Thaer A. Alethary [2]

Research Summary

The novelist premeditates to draws and formation his characters from the outside, and this aspect includes the general appearance of the character and its apparent form, and the narrator mentions the character's clothes, features, height, age and handsomeness, ugliness of its shape, and its physical strength, and this aspect has its great importance because it helps the reader to identify other aspects, the recipient often discover the social position of the character through its clothes, as well the movements of a fat man differ from the movements of a thin man, and the behavior of obnoxious person may differ from the behavior of a handsome person, the novelist wanted to make from his accurate drawing of his characters excuse to prepare the recipient to receive that accompany this character from the emotional experiences or otherwise and the many contradictions associated with it.

Keywords : Light and shadow, External, Character, Dimensions, The Novel

Affiliation of Authors
[1] Kut University College, Wasit, Iraq, 52001
Nazikalmalaika089@gmail.com

[2] University of Wasit, Wasit, Iraq, 52001
alethary@uowasit.edu.iq

[1] **Corresponding Author**

Paper Info.
Published: Dec. 2021

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من اصطفاه الله رحمة للعالمين أشرف الخلق وسيّدهم محمد بن عبد الله الذي سُعد الكون ببعثته وأضاء ظلام الدنيا بنور رسالته وعلى أهل بيته الطّيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين إلى يوم الدين.

وبعد...

فإن البعد الظاهري الجسماني يؤثر في سلوك الشخصية سواء أكان سلبا أم إيجابا. وهذه الأبعاد والملامح الخارجية ما هي إلا مرآة تكشف أغوارها الفكرية والنفسية، فالمظهر الخارجي هو المرآة لجوهر الفلسفة الإنسانية، ويظهر ذلك عن طريق التحكم بكمية الضوء والظل المسلط على الشخصيات ويبين بجلاء تشكيلاتها التي توحي بدلالات مختلفة تتعلق بمكوناتها ووجهاتها التي تحيل إلى وضعها الاجتماعي والأخلاقي والنفسي بحسب الدور المناط بها في النص الروائي المحفوظي.

المبحث الأول: الضوء والظل وأبعاد الشخصية في رواية اللص والكلاب:

لقد صوّرت شخصيات "نجيب محفوظ" الواقع عبر حركتها وسلوكها ونموّها التدريجي وتقدم الحياة بحيوية وفاعلية وهي قادرة على الصمود والتحدي وما يمكن لكل إنسان أن يشعر به من انفعال، فقد أمسك محفوظ بأدوات الفنان التشكيلي ليخلق أو يرسم صورا ذهنية دقيقة التفاصيل لدى القارئ، مسلطا الضوء والظل على البناء الخارجي للشخصيات، ليكون بذلك صورة متكاملة يشعر المتلقي بحيويتها وتألقها ويرى جمالياتها وما يكمن فيها من دلالات من شأنها أن تمرر رسائل هادفة لغرض معين أو إيصال فكر ناتج من ظاهرة اجتماعية سادت بسبب ظروف وأحداث سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك، فقد رسمت الشخصية الرئيسة في رواية "اللص والكلاب"[1] بحرفية حاذقة ليظهر الملامح الخارجية لها وما يؤثر فيها من أحداث حصلت لها، فالظل والعتمة لا يكاد ينفك من "سعيد مهران" –شخصية الرواية الرئيسة- لترتسم في الأذهان ماهية بنائها، فالقراءة الفاحصة لمتن الرواية تكشف عن صورة سعيد التي رسمها وخطط أبعادها الروائي لتتلاءم مع دوره في الأحداث بدءا من خروجه من السجن بعد أربع سنوات من دخوله إياه بسبب وشاية أقرب صديق له فكان سعيد متحمسا لينقض على الذين خانوه وغدروا به ، وقد أسهم الظل بمهمة كبيرة في تشكيل شخصية مهران بدءا من العنوان (اللص والكلاب).

ومعروف أنّ مفردة اللّص تحيل الذهن إلى الليل والظل والظلام؛ لأنّه عادة ما يتخذ اللص من الظل بيئة لحركته لكي لا يراه أحد وهو يقوم بأفعاله المخالفة بطبيعة الحال وسرقة الآخرين، بغض النظر عن البواعث والأسباب التي دعت إلى ذلك، وعندما نضع أول الخطوات في القراءة المتفحصة بين طيات الرواية ثم إيغال السير يلاحظ أنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحاتها من ثنائية الضوء والظل في تشكيل شخصياتها، بل حتى حبكة الأحداث وزمانها ومكانها، فهي مشاهد مكتظة بالضوء والظل الذي يسهم في ظهور هذه الشخصيات والأحداث بالصورة القريبة من الذهن، فلا يوجد شيء مغيب الملامح، فالأجسام توصف وصفا متكاملا، على الرغم من هيمنة الظل في عموم الرواية؛ لأنّ أغلب المشاهد والأحداث حصلت ليلا، فهو الوقت الأنسب لتحرك سعيد مهران بعيدا عن الأعين ، إلّا أنّ أول ظهور للشخصية كان في الضوء وهو النهار الساطع الشمس الذي تشكلت منه الصورة الذهنية لسعيد: **"مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية ، ولكن الجو غبار خانق وحر لا يطاق. وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد في انتظاره أحدا...هذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهذه السيارات المجنونة والعابرون والجالسون... ولا شفة تفتر عن ابتسامة.. وهو واحد خسر الكثير، حتى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدرا، وسيقف عما قريب أمام الجميع متحديا. آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونة أن ييأسوا حتى الموت... وتراءت الجوامع الشاهقة، وطار رأس القلعة في السماء الصافية، وانساب الطريق في الميدان، وتجلت خضرة البستان تحت الأشعة الحامية... وكان على الوجه الذي لفحته الشمس أن ينبسط وأن يصب ماء باردا على جوفه المستعر كي يبدو مسالما أليفا فيمثل دوره المرسوم كما ينبغي"**[2].

قام الضوء بمهمّة كبيرة في رسم معالم الشخصية عند أول ظهور لها في النص، فكشفت أشعة الشمس عن شخصية مليئة بالحقد والرغبة في الانتقام من الذين خانوه ووشوا به وهم أقرب الناس إليه، فبسببهم خسر من عمره الكثير غدرا في السجن، وقد ذكرت في مواضع متقدمة أن الضوء هو مصدر للطاقة الإيجابية ولكل ما هو خير وراحة وطمأنينة، إلّا أنّ الضوء هنا كان مصدرا للانفعالات المليئة بالحقد والكراهية والشرّ الذي يتطاير من عيني سعيد اللوزيتين الذي يتنافى اسمه مع شخصيته التواقة للانتقام، فما أبعد طريق السعادة عنه، والكدر الذي غلف روحه على الرغم من مروره بأماكن عادة ما تكون مبعثا للسرور والارتياح، فلم تؤثر به أبدا أشعة الشمس، والنسمات المنعشة، والجوامع الشاهقة، وخضرة البساتين. وفي موضع آخر بدا سعيد مهران غريب المنظر خاصة وهو يقف أمام موظفي "رؤوف علوان" -أحد الذين تتلمذ على أيديهم وتأثر بأفكارهم- لما يرتديه من ملبس وما يحتذيه، ونظرة جريئة وصوت غليظ: **"دخل ضمن تيار الداخلين، ثم وقف أمام مكتب الاستعلامات وسأل بصوت غليظ النبرات:**

-الأستاذ رؤوف علوان؟

فرمقه الموظف فيما يشبه الامتعاض لنظرة عينيه اللوزيتين الجريئة لحد الوقاحة. وأجابه بجفاء:

-الدور الرابع..

قصد من توه المصعد فوقف بين قوم بدا فيهم غريب المنظر ببدلته الزرقاء وحذائه المطاط، وزاد من غرابته نظرته الحادة الجريئة وأنفه الأقنى الطويل"[3]، وبقي ينتظر رؤوف علوان وصراع قائم في سره ويتوعد الخونة بالويل حتى حلول الظلام الذي دائما يخبئ له الفرج لتتضح تقاسيم وجهه ونظرات عينيه حول منزل رؤوف علوان، ففي هذا الظل الناتج من شجرة حجبت الضوء أطرت لوحة رسمت بها الهيئة التي كان عليها سعيد وهو جالس يتأمل هذا المنزل: **"افترش العشب الندي عند كورنيش النيل بشارع النيل ومضى ينتظر. انتظر طويلا على كثب من شجرة حجبت ضوء المصباح الكهربائي ، تحت سماء غاب عنها الهلال مبكرا تاركا النجوم تومض في ظلمة رهيبة. وجرت نسمة رقيقة لطيفة مقطرة من أنفاس الليل عقب نهار أحمر طغى فيه الصيف طغيانه . ولم تفارق عيناه الفيلا رقم 81 لحظة واحدة، موليا النيل ظهره شابكا راحتيه حول ركبتيه . يا لها من فيللا خالية من ثلاث جهات، والجهة الرابعة حديقة مترامية"**[4].

لقد شكلت ظلال الأشجار التي حجبت أضواء المصابيح مشهدا مليئا بالتفاصيل، فكانت لوحة متحركة تعج بالحيوية، يهز الهواء الطلق هذه الأشجار الموزعة في الحديقة التي تحيط بالمنزل، فظلال الأشجار تتناجى حول فيللا رؤوف البيضاء، فتكونت صورة لمنظر قديم يعج بالثراء وذكريات التاريخ، ليصير سببا آخر يؤثر في تحركات سعيد التي أعلنت عن شخصيته الجامحة حين أقدم على أن يعبر الطريق بسرعة خاطفة لصاحبها رؤوف علوان في مشهد يحفه الظل من كل جانب: **"ووثب واقفا عند توقف سيارة أمام الفيللا . ولما رأى الباب يفتح على مصراعيه عبر الطريق بسرعة خاطفة، ثم تصدى للسيارة منحنيا قليلا ليراه صاحبها، ولكن الرجل لم يعرفه في الظلام فهتف بصوته الغليظ القوي:**

-أستاذ رؤوف.. أنا سعيد مهران!"[5]

لطالما كان الظلّ والظلام مصدرين لكل تحركات سعيد مهران، إلا أنه لم يكن حليفه في خطته وتوجهه فيما كان يعزم عليه من فعل كان يرومه وهو دأبه وغاية مبتغاه الانتقام من الخونة، لكنّه ارتكب خطأً فادحا كلفه حريته مدى الحياة فقد اجتمعت ثنائية الضوء والظل في مشهد حاسم أثر في سعيد مهران وكانت نقطة تحول جعلت منه ملازما للظلام كي لا يراه أحد لجريمة اقترفها لانعدام الضوء الذي يكشف عن الأشياء، فلم يتمكن من معرفة غريمه "عليش" صديقه المقرب الخائن بسبب الظل وعتمة الليل السائدة في وقتها : **"قمة النجاح أن يقتلا معا، نبوية، عليش...كان يحوم حول البيت القائم على مفرق ثلاث عطفات بحارة سكة الإمام في ظلمة حالكة... واقترب من باب البيت ملاصقا للجدار ثم دخل. وصعد السلم في حذر شديد. وظلام دامس مارا بالدور الأول فالثاني ثم الثالث. ها هو الباب المغلق... وفتح باب في الناحية اليسرى فخرج منه ضوء خفيف ، ثم لاح شبح رجل يتقدم في حذر. ضغط سعيد على الزناد فانطلقت الرصاص كصرخة عفريت في الليل"**[6]، وبعد هذه الحادثة يصور الكاتب تحت ثنائية الضوء والظل هَيْأة سعيد مهران بعد ليلة رهيبة معتقدا أنّه انتقم من غريمه وعدوه –عليش سدرة- فكانت لوحة مليئة بالدلالات والانفعالات وما يبدو عليه سعيد مهران وهو نائم: **"نمت نوما طويلا ولكنك لا تعرف الراحة ، كطفل ملقى تحت نار الشمس، وقلبك المحترق يحن إلى الظل ولكن يمعن في السير تحت قذائف الشمس، ألم تتعلم المشي بعد؟!"**[7].

بعد هذه الأحداث وقتله لرجل بريء خطأً لم يعد النور يجد إليه من سبيل كي لا يراه أحد والشرطة تحديدا، التي كانت تلاحقه، لكن بصيص النور لم ينعدم نهائيا فكان النور مع نور إحدى الشخصيات التي تكن له الحب والود فآوته في بيتها البعيد عن الأنظار[8]، بيد أنّه سرعان ما تلاشى نهائيا عند نهاية أحداث الرواية التي اكتظت بمشاهد الضوء والظل لا يسع المجال لذكرها وكان الاقتصار على أبرز المشاهد التي تشكلت منها شخصية سعيد مهران التي ظهرت في الضوء في وضح النهار عند أول الدخول في متن الرواية التي كانت صورا ومشاهد حية مفعمة بالحركة ودقيقة التفاصيل لما يؤديه الضوء والظل من وظائف في اكتساب الأجسام الحيوية والتألق وقدرة على التعبير عن خصائص الأشياء من حيث الحجم والعمق، فكان المشهد الأخير الذي انتهت إليه الشخصية الرئيسة في الظلام في الصف الأخير من القبور عندها كل حواسه آذنت له بأنها النهاية التي سيؤول إليها ومصيره المحتوم بعد سماعه لأصوات نباح عصي عليه أن يحدد مصدرها: **"أخيرا جاءت الكلاب وانقطع الأمل ونجا الأوغاد ولو إلى حين . وقالت حياته كلمته الأخيرة بأنها عبث . ومن المستحيل تحديد مصدر النباح الذي ينطلق مع الهواء من كل موقع ولا أمل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام ... ورأت عيناه المعذبتان بالخوف شبح الموت يشق الظلام... وإذا بالضوء الصارخ ينطفئ بغتة**

فيسود الظلام. وإذا بالرصاص يسكت فيسود الصمت... وتغلغل الصمت في الدنيا جميعا ... وتكاثف الظلام فلم يعد يرى شيئا... وغاص في الأعماق بلا نهاية... ليبذل مقاومة أخيرة... ولم يجد بدا من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة .. بلا مبالاة"[9].

يلاحظ أن الكاتب كان متحكما في عملية تشكيل شخصية سعيد مهران وتصويرها وقد أثر الضوء والظل على تحركها وسلوكها وهَيْأَتِها بدءا من أول ظهورها حتى استسلامها في نهاية المطاف.

المبحث الثاني: الضوء والظل وأبعاد الشخصية الخارجية في رواية بين القصرين:

تشكل الأشعة الضوئية الشاحبة المنبعثة من مصباحٍ معلقٍ في الصالة مصدرا رئيسا في الكشف عن أبعاد الشخصيات الرئيسة لعائلة متمسكة جدا بالعادات والتقاليد في حقبة زمنية عاصرت ثورة 1919، فقد تجلت عبر هذا الضوء الخافت شخصية "أمينة" في رواية "بين القصرين"[10] أولى روايات نجيب محفوظ في ثلاثيته الشهيرة – بين القصرين، قصر الشوق، السكرية- ، وعلى الرغم من خفوت الضوء وشحوبه إلا أنّه كان كفيلا بتصوير الشخصية ومعرفة ملامحها الخارجية وهيأتها وما تتمتع به من صفات: **"انساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء الكنبة ... اتجهت المرأة الى المرآة والقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البني منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائي فوق الجبين ، فمدت أصابعها إلى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه في أناة وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلئ في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي .. وقد بدت وهي تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت في قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التي تملأ أضلافها المغلقة إلى الطريق"**[11].

كشف الضوء المحفوف بالظلال عن شخصية الأم والزوجة المطيعة التي لا تكاد تخرج من البيت مذعنة تماما لإرادة زوجها المتسلط والمستبد الصارم الذي سيأتي الحديث عنه، فالزوجة (أمينة) كانت رهينة المحبسين الزوج والدار ، فهي لا تعرف شيئا خارج هذا البيت الذي حفظت تفاصيله وأدق زواياه حتى في العتمة والسواد القاتم هي تحفظ مسالكه جيدا، لكن هذه المعرفة تنعدم تماما خارج باب بيتها، حتى متجر زوجها تجهل الطريق إليه، زوجها الذي تراه سيدها وتحفه بهالة من التقديس المفرط من غير أن يسمعها أي كلمة يعبر بها عن امتنانه لها، لما تبديه له من تودد مفرط ومبالغة في التبجيل، فالمرأة في منظوره ومنظور أمثاله من الرجال في مجتمعه المغرق في ذكوريته لا يمكن لها قطعا الخروج من بيت الزوجية إلا لسببين الموت أو الطلاق.

لقد أثر هذا التجبر والتسلط والأنانية الصارمة أن تألف كل ما يكشفه الضوء الساطع من النجوم وما يخلفه الظلام عند حلوله فهو إيذان بانتهاء الحركة التي يعج بها النهار ، فتُغلق المتاجر وتخلو المقاهي من مرتاديها، هذا المنظر ألفته منذ ربع قرن فهي تطالعه من نوافذها المطلة على هذه الأمكنة: **"كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين... فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف في أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة، وتخف في أسافله بما يلقى اليه من اضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة . منظر الفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه انيسا لوحشتها واليفا لوحدتها عهدا طويلا عاشته و كأنه لا انيس ولا اليف لها"**[12]، عبر هذه المشاهد والصور الذهنية التي امتدت حتى نهاية الرواية يتجلى أمام المتلقي أبرز شخصياتها كشفه الضوء المتذبذب في الشدة والوضوح فتارة يكون شاحبا خافتا وأخرى يكون ساطعا مستجليا كل خفايا الأجسام ، وأخرى يكون ضئيلا للحد الذي يجعل الجسم مغيب الملامح، وحتى الظل الناتج عن الضوء بغض النظر

عن حدته أسهم بشكل كبير في تصوير الشخصيات على الهيأة التي رآها المتلقي وهو يتفحص بنظره وفكره مفردات متن الرواية التي شكلت كتلا منحوتة ولوحات فنية عن طريق اللغة المنتقاة بحرفية لتشكل بنية خارجية للشخصيات شبيهة بالواقع.

وبعد معرفة شخصية (أمينة) ذات الوجه الواحد المتمثل بالطاعة التامة على الرغم من تناوب الضوء والظل، تظهر الشخصية الأبرز في الرواية وذات الحضور القوي المتمثلة بأحمد عبد الجواد الذي يتمتع بدور خاص، هذا الكائن تقمص أكثر من شخصية تبعا للضوء والظل.

لقد كشف ضوء المصباح عن رجل طويل ضخم الجسم بارز الملامح مفعم بالهيبة والوقار له حضوره المميز بما يتمتع به من تفاصيل دأبت أمينة على حفظها والشعور بالغبطة وهي تتأمل هذه الملامح في سرها: **"فاتجهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه... وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان في اناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي راسه في عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسي الكبير ، وساعته الذهبية ، إلا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيأة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل في جماليته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين؛ وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها"**[13]، إنّ رجلا مثله متمتعا بالجمال واليسر والقوة والسطوة والحضور المهيب لا يمكن أبدا أنْ يلازم وجهة واحدة فتملأ حياته بالضجر والسأم والملل لذلك لا تخلو حياته من النساء ومن ليال السهر والغناء وكل ما من شأنه أن يجعله مستمتعا ومنجرفا وراء اللذة والأهواء، لقد كان الظل هو المستودع لهذه الشخصية ، فكان الظلام كفيلًا بحجب هذه الشخصية اللاهية والعابثة والغارقة في بحر الشهوة والمجون والانحدار لمستنقع الرذائل: **" وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى في اطرافهما أحمر طارئ من اثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، إلى إفراط في الشرب حتى السكر ، إلا أنه لم يكن ليقرر العودة إلى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على و قاره والمظهر الذي يحب ان يبدو به في بيته"**[14]، وهذا ما يشعره بأن الدور الذي يؤديه في سهرته كأنما أمل الحياة المنشود على الرغم من خطورته وإن حياته التي يقضيها في العمل ضرورة تؤدى من أجل أن يظفر بأوقات سعيدة مليئة بالهوى والسكر والغناء بين خلصائه، وعلى النقيض من ذلك شخصيته في وضح النهار أمام عائلته فهو العقلاني الصارم والمتزمت حتى لا يكاد يشوب خلقه شيء حريصا على حزمه ووقاره وكل ما يصدر عنه من لطف يكون خلسة يواريها عن عائلته ليبقى بذات التزمت، هذا ما يفصحه ضوء النهار الناصع في صباحه عندما يجتمع مع عائلته على مأدبة الإفطار وهو الوجه المثالي للأب: **" فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض إلى المرآة وراح يرتدي ملابسه التي قدمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتي راسه ، ثم سوى شاربه وفتله، وتفرس في هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين فيرى جانبه الأيسر ، ثم إلى اليسار، ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عباها له عم حسنين الحلاق، فغسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث في قلبه - مع الحب - الاجلال والخوف"**[15]، ولا بدّ من الإشارة إلى الحد الذي يختلط فيه ضوء النهار مع ظل الأرض الذي أنتج هذا الظلام فكان الليل، وعند هذه النقطة بالتحديد وهو ما يطلق عليه الفجر الذي تتواشج فيه خيوط الضوء مع الظل يظهر السيد بشخصية التقي الورع الذي يخاف الله ويعبده العبادة الحقة بالمواظبة على صلاته في وقتها المحدد: **"ذيول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء...وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه... وذهب الى الحمام فتطاير الى أنفه عرف البخور الطيب ، وألفى على كرسي ثيابا نظيفة مرتبة في عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء - ثم عاد إلى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية علي مسند الكنبة - فبسطها وأدّى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقى به أصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التي ألانها التزلف والتودد والاستغفار ، لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بالحماس نفسه الذي ينفضه على الوان الحياة التي ينقلب فيها جميعا ، كما**

يعمل فيتفانى في عمله ، ويصادق فيفرط في مودته ، ويعشق فيذوب في عشقه ، وسكر فيغرق في سكره ، مخلصا صادقا في كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولي حتى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له وبارك في ذريته وتجارته"[16].

لقد تجلى عبر تناوب الضوء والظل مع تعاقب النهار والليل والحد الذي يلتقيان به عن أبعاد ظاهرية لشخصيات ثلاث تتبع هذا التناوب لشخص واحد هو أحمد عبد الجواد، ففي الضوء هو الرجل المنضبط المثالي قوي الشخصية له حضوره المهيب والكل يقدره ويحيطه بهالة من التقديس والاحترام، وفي الظل على الضد من ذلك فهو الذي يتهافت وراء اللذة والمجون والانغماس في الشهوات والسكر والسهر، وعند اللحظة التي ينجلي فيها الظل تدريجيا وتحل خيوط الضوء محلها عند هذه النقطة التي تسمى الفجر يظهر السيد بجلباب العابد التقي الورع الذي يخشى الله ويحبه ويلتزم بعبادته ويحافظ على وقت الصلاة التي يصليها بكل خشوع وحب لله.

المبحث الثالث: الضوء والظل وأبعاد الشخصية الخارجية في رواية ميرامار:

يقدم نجيب محفوظ شخصية "زهرة" عبر أداته السحرية متلازمة الضوء والظل في رواية "ميرامار"[17] تقديما حالما يوثق به أصالتها، إنّها الفتاة الريفية القادمة من حضن الريف المصري متوجهة إلى الاسكندرية "المدينة البحرية المنفتحة على الثقافة الأوربية عبر الجاليات العديدة التي استوطنتها منذ زمن بعيد وبخاصة الجالية اليونانية ، وقد ظل هذا الإرث الثقافي مستمرا حتى بعد قيام الثورة ورحيل الجاليات ، وتمثّل رمزيا في بنسيون (ميرامار)"[18] تُقدّم "زهرة" في خيوط متشابكة مع أربع رواة ابتداءً من "عامر وجدي" الصحفي المتقاعد، و"طلبة مرزوق" أحد عتاة الملكية الذي صودرت أمواله ، و"حسني علّام" الساخر المعدم، والشاب الجامعي "سرحات البحيري" الذي يمكن عدّه الشخصية الرئيسة مع "زهرة" مستجيبا للمشاعر التي تجذبه تجاهها[19].

يدخل الضوء _عند تقديم شخصية زهرة_ في علاقة مع تفصيلات المشهد ليعطي دلالة يتوصّل لها المتلقي بعد أن يتعرّف على الأوصاف الخارجية للفتاة عن طريق مراعاة خصائص ومميزات بنائية ووظيفية مسؤولة عن إنتاج تلك الدلالة[20] التي تشي بها الشخصية ، وهي علامة لشيء يرمي له المبدع من أجل فتح أفق التأويل والافتراض للحدث الذي ينطلق مما تفترضه العلامة من دلالة في ذهن القارئ المختص[21].

ينشق الضوء ليرسم أبعاد شخصية زهرة فتظهر أصيلة ومؤثرة جدا: **"السرادق مكتظ بالخلق، ساحة المولد كيوم الحشر، والصواريخ تنطلق في الفضاء. انشق النور وانعدم الظلام... كنت أجلس في المدخل ولا أحد معي في البنسيون عندما دق الجرس. فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامي وجها انشرح لمرآه صدري. من النظرة الأولى انشرح له صدري. وجه أسمر لفلاحة مطوقة الرأس والوجه بطرحة سوداء: أصيلة الملامح مؤثرة جدا بنظرة عينيها الحلوة المترقبة :**

. من أنت؟

- أنا زهرة !

قالتها ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام . سألتها وأنا أبتسم :

- ماذا تريدين يا زهرة؟

. الست ماريانا.

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة. نظرت فيما حولها ثم سألت :

- أين الست؟

- ستجيئ بعد قليل، اجلسي .

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسي في نشاط جديد. جعلت أنظر إليها، إلى تكوينها القوى الرشيق، وملاحتها الفائقة، وشبابها الغض، وأنا في غاية من الارتياح"[22] قدّم الضوء شخصية زهرة محددا ملامحها وأبعادها وكاشفا عن لون بشرتها السمراء وملامحها المؤثرة ونظرة عينيها الجميلة؛ فضلا عن براءة قولها وهي تفصح عن اسمها بإجلال، لعل نجيب محفوظ أراد أنْ يكشف عن طريق الضوء المتمثل ب"انشق النور وانعدم الظلام" وظهور شخصية زهرة الأصيلة وهي تتحدث بسمو وفخار وكأنها علم من الأعلام عن أصالة وعراقة بلده مصر فاستعمل شخصية زهرة وأطلق عليها أوصافا تنطبق على بلاده العريقة ، فنعت تكوينها بالقوي والملاحة الفائقة

والشباب الغض، والراوي الذي نسج خيوط شخصيتها وهي تتكلم كان في غاية الارتياح وهو ينظر إليها.

ويتجلى في موضع آخر دأب زهرة على تأدية واجباتها وعملها بأتم وجه، ويظهر ذلك في ليلة باردة تلمع فيها النجوم، والثنائية هذه التي جمعت بين ظلام الليل ولمعان النجوم وتوّهجها كشف بعدا آخر من شخصية زهرة إذ إنّها لا تكلّ عن العمل لإعطاء الشهد : **"جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا و قالت زهرة : إن السماء صافية وإنك تستطيع أن تعد النجوم. ودارت الكؤوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة. عانى طلبة مرزوق وحده قلقا خفيا. قال لي قبل السهر بأيام: «سينقلب البنسيون جحيما». إنه يخاف الأغراب، ولم يشك في أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهي"**[23]، لقد صوّر الضوء المتمثل بالنجوم والظل المتمثلين بالليل المعالم الخارجية لتشكيل شخصية زهرة الغضة والأصيلة ، فظهرت في النص هذا مثابرة وكفوءة تعمل على تأدية عملها بشكل جميل فشبهها الراوي بالنحلة ولهذا دلالات عميقة ومؤثرة في الإخلاص والجد في تأدية المهام، وبعد هذا كله تجلس لتراقب بنظرة باسمة ومبتهجة، فيعطي هذا إيحاء باعثا للطمأنينة، ليضاف إلى تشكيل شخصية زهرة أوصاف خارجية وأفعال تسهم بخلق صورة مشرقة عنها، متطلعة لتغيير حياتها والثورة عليها بسبب العادات البالية التي أرادت أن تطمس جمالها وأنوثتها عندما أرادوا تزويجها من عجوز طاعن في السن، بيد أن إرادتها أكبر من ذلك ، فعبرت إلى زمن جديد مبتعدة عن قمقم العادات ، وفي هذا رمز لمصر الجديدة المكافحة وشعبها الصادق البسيط المحب للحياة، لقد "حمّل نجيب محفوظ شخصية (زهرة) ملامح (مصر الثورة)، مصر التي هجرن ماضيها بأوشابه وجهالته، وراحت تخطو إلى عهد جديد متسلحة بالعلم وقوة الشخصية والثقة بالنفس... وتمثل ذلك في القرار الذي اتخذته زهرة بتعلم القراءة والكتابة على يد إحدى المدرسات ، ومضيها في ذلك بعزيمة قوية وإرادة لا تلين، كما تمثل في رفضها لكل ما يمسّ كرامتها"[24]، حرص عامر وجدي على الدعاء من أجلها وأن يحفظها الله ويسعدها من قلبه، كما خاطبها في أحد النصوص قائلا:

" -إني مقيم هنا يا زهرة.

-وأسرتك؟

-قلت ضاحكا:

-لا أحد لي في الدنيا سواك"[25]، ففي هذا تصريح على أن شخصية "زهرة" ما هي إلا رمز لمصر وشعبها المحب لبلده والمكافح من أجله والصادق في إخلاصه وعمله.

الاستنتاجات:

يشكّل الضوء بتدرجاته وتسمياته المتعددة أحد العناصر المهمة في إبراز المشاهد والشخصيات، إذ يسهم في انتاج معنى ما يُناط به بما يناسب وقت الحدث، وكيفية إنتاجه[26]، فيقدّم –في النهاية- صورة تتكامل مع التفاصيل الأخرى التي تعاضده في ذلك وتسانده.

استطاع نجيب محفوظ أن يصوّر شخصياته الروائية تصويرا واقعيا راسما إياها بملامحها المؤثرة والباعثة على فكر أراد أن يوصله إلى المتلقي عبر تقنية الضوء والظل الذي كان يمثل أداة سحرية تظهر عن طريقها أبعاد الشخصية الخارجية، فتكشف عن ملامحها وأفعالها وتناقضاتها، إذ تكون بعضها مختلفة بأفعالها في الضوء عنها في الظل المعتم، وبين تدرجات الضوء والظل في مستوى وسط بينهما تكون شخصية أخرى أيضا مثل شخصية أحمد عبد الجواد في الثلاثية، فضلا عن الأوصاف والحضور للشخصيات وما تثيرها من انطباعات في نفوس القراء سواء أكانت إيجابية أم سلبية بحسب الدور الذي تقوم به في الرواية وتشكيلها الخارجي الذي حرص عليه نجيب محفوظ محددا ومصورا إياه بعناية كبيرة جعلت منه واقعيا غائصا في أدق تفاصيل الحياة في حارات مصر وأزقتها وشوارعها.

التوصيات:

- تحديد الأبعاد الخارجية للشخصيات الروائية عبر تقنية الضوء والظل التي ترسم الملامح الباعثة على دلائل مختلفة.
- تلمّس مواطن الضوء والظل في تشكيل الشخصيات من الخارج.

الهوامش:

[1] - اللص والكلاب، نجيب محفوظ: دار الشروق، القاهرة، ط13، 2018.

[2] - نفسه: 5، 7.

[3] - نفسه: 26.

[4] - نفسه: 27.

[5] - نفسه: 27، 28.

[6] - نفسه: 58، 59، 60.

[7] - نفسه: 66.

[8] - ينظر: نفسه: 70، 71.

[9] - نفسه: 135- 137.

[10] - بين القصرين ، نجيب محفوظ: مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1990.

[11] - نفسه: 3، 4.

[12] - نفسه: 4.

[13] - نفسه: 9.

[14] - نفسه: 10.

[15] - نفسه: 21، 22.

[16] - نفسه: 14، 17، 18.

[17] - الأعمال الكاملة، نجيب محفوظ: دار الشروق، القاهرة، ط1، 2006.

[18] - ميرامار نجيب محفوظ .. الشخصيات ومصائرها بين ثورتين، البيان، 2016/7/8.

[19] - ينظر : ميرامار نجيب محفوظ .. الشخصيات ومصائرها بين ثورتين.

[20] - ينظر: سيمياء الضوء في المسرح، د. رياض شهيد الباهلي: منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2009: 183.

[21] - ينظر: العلاماتية وعلم النص، د. منذر عياشي: مركز الإنماء الحضاري دار المحبة، 2009: 24.

[22] - ميرامار: 23، 24.

[23] - نفسه: 32.

[24] - رواية ميرامار والواقعية الرمزية، يوسف البراوي: ساسا بوست، 2018/4/16.

[25] - ميرامار: 29.

[26] - ينظر: توظيف السينوغرافيا، علاء مشذوب: إصدارات بغداد عاصمة الثقافة، ط1، 2012 :75.

المصادر:

- الأعمال الكاملة، نجيب محفوظ: دار الشروق، القاهرة، ط1، 2006.
- العلاماتية وعلم النص، د. منذر عياشي: مركز الإنماء الحضاري دار المحبة، 2009: 24.
- اللص والكلاب، نجيب محفوظ: دار الشروق، القاهرة، ط13، 2018.
- بين القصرين ، نجيب محفوظ: مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1990.
- توظيف السينوغرافيا، علاء مشذوب: إصدارات بغداد عاصمة الثقافة، ط1، 2012:75.
- رواية ميرامار والواقعية الرمزية، يوسف البراوي: ساسا بوست، 2018/4/16.
- سيمياء الضوء في المسرح، د. رياض شهيد الباهلي: منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2009: 183.
- ميرامار نجيب محفوظ .. الشخصيات ومصائرها بين ثورتين، البيان، 2016/7/8.